بَابٌ
قَوْلُ: مَا شَاءَ اللَّهُ وشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد

أن قول: (ما شاء الله وشئت) من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ؛ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

* * *

قوله: «أن يهوديًا»: اليهودي: هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب؛ فتكون التسمية من أجل النسب، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعًا.

قوله: «إنكم تشركون»: أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: «ما شاء الله وشئت»: الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه، وهو الله ـ عز وجل ـ، حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: «والكعبة»: الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر

فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسائيُّ وَصَحَّحَهُ[1].

النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هٰذا الكلام؛ فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة؛ فيكون القسم بالله.

وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت؛ فيكون الترتيب بثم بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وبذٰلك يكون الترتيب صحيحًا، أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني؛ فلأنه جُعِل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لا مساواة بينهما.

*** ويستفاد من الحديث:**

١ ـ أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذَّمَّ واللَّومَ للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢ ـ مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نَبَّه عليه ليس من أهل الحق.

٣ ـ أنه ينبغي عند تغيير الشيء أن يغير إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «**ورب الكعبة**»، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: «**ما شاء الله، ثم شئت**».

*** إشكال وجوابه:**

وهو أن يقال: كيف لم يُنَبِّه على هٰذا العمل إلا هٰذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

---

(١) أخرجه: الإمام أحمد (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، والنسائي في (الأيمان، باب الحلف بالكعبة، ٧/ ٦)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٩١، ٣٥٧)، والحاكم (٤/ ٢٩٧) ـ وصححه ووافقه الذهبي ـ، والبيهقي (٣/ ٢١٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣/ ١٦٩٤). وصححه الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٣٨٩).

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**»(١).

ولٰكن يقال: بأن الله يعلم؛ فكيف يقرهم؟ فيبقى الإشكال، لٰكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر؛ فتكون الحكمة هي ابتلاء هٰؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهٰذه اللفظة مع أنهم يشركون شركًا أكبر ولا يرون عيبهم.

* * *

قوله: في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أن رجلًا قال للنبي ﷺ**».

الظاهر أنه قال للنبي ﷺ تعظيمًا، وأنه جعل الأمر مُفَوَّضًا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: «**أجعلتني لله ندًّا؟!**».

الاستفهام للإنكار، وقد ضُمِّن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندًّا؛ فقد أتى شيئًا عجابًا.

والنِّد: هو النظير والمساوي؛ أي: أجعلتني لله مساويًا في هٰذا الأمر؟!

قوله: «**بل ما شاء الله وحده**»: أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بَعُدَت.

---

(١) سبق (ص٢٩).

.....

* يستفاد من الحديث:

١ ـ أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذٰلك؛ فهو أصغر، وإذا كان هٰذا شركًا؛ فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!

هٰذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولٰكن الله فَضَّلَه على البشر بما أُوحي إليه من هٰذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ فهو بشر، وأَكَّد هٰذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لٰكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية؛ فهٰذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذٰلك؛ فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولا نهضهم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولٰكننا لا ننزله منزلة الرب ـ عز وجل ـ.

٢ ـ إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكِر؛ لقوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا؟!**»، مع أنه فعل ذٰلك تعظيمًا للنبي ﷺ، وعلى هٰذا إذا انحنى لك شخص عند السلام؛ فالواجب عليك الإنكار.

٣ ـ **أن من حسن الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ أن تذكر ما يباح إذا**

ولابْنِ مَاجه عَنِ الطُّفَيْلِ أَخي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا؛ قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ؛ قُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَأَنْتُم لَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسيحُ ابنُ اللَّهِ.

ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قوله: «**ما شاء الله وشئت**» أرشده إلى الجائز، وهو قوله: «**بل ما شاء الله وحده**».

* * *

قوله في حديث الطفيل: «**رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود**»: أي: رؤيا في المنام.

وقوله: «**كأن**»: اسمها الياء، وجملة «أتيت» خبرها.

وقوله: «**على نفر**»: من الثلاثة إلى التسعة، واليهود أتباع موسى.

قوله: «**لأنتم القوم**»: كلمة مدح؛ كقولك: هٰؤلاء هم الرجال.

وقوله: «**عزيز هو**»: رجل صالح ادَّعى اليهود أنه ابن الله، وهٰذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لٰكن خُصَّت هٰذه؛ لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «**ما شاء الله وشاء محمد**»: هٰذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هٰذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله ـ عز وجل ـ باللفظ مع عظم ما قاله هٰؤلاء اليهود في حق الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: «**تقولون: المسيح ابن الله**»: هو عيسى بن مريم، وسُمِّي

قَالُوا: وإِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ؛ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ؛ قَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**». قُلْتُ: نَعَمْ.

مسيحًا بمعنى ماسح؛ فهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ بإذن الله؛ كالأكمه والأبرص.

والشيطان لعب بالنصارى، فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتى بدون أب، كما في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهٰذا يقبضها المَلَكُ عند الموت وتُكَفَّن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته؛ فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولٰكنه ليس كذٰلك، والحياة صحيح أنها صفة لٰكن الروح ذات، إذًا نقول لهٰؤلاء النصارى: إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة إليه وما أشبه ذٰلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفًا وعظمة، حتى إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تَدْعُنِي إلا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّه أَشْرَفُ أَسْمَائِي

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت»: المقصود بهٰذه العبارة الإبهام؛ كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنى آخر.

قوله: «هل أخبرت بها أحدًا؟»: سأل النبي ﷺ هٰذا السؤال؛ لأنه

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنكُم، وإِنَّكُم قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا**

لو قال: لم أخبر أحدًا؛ فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدًا، هٰذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لٰكن لما قال: إنه أخبر بها؛ صار لا بد من بيانها للناس عمومًا؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف ما إذا كان خاصًا؛ فهٰذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «فحمد الله»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

قوله: «وأثنى عليه»: أي: كرر ذٰلك الوصف.

قوله: «أما بعد»: سبق أنها بمعنى مهما يكن من شيء بعد؛ أي: بعد ما ذكرت؛ فكذا وكذا.

قوله: «يمنعني كذا وكذا»: أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولٰكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولٰكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذٰلك، هٰذا الذي يجب أن تحمل عليه هٰذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق، ولٰكن الحياء من أن ينكر شيئًا قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حُرِّمت في سورة المائدة؛ فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذٰلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لا بد من إنكارها لدخول اللَّوم على المسلمين بالنطق بها.

أَنْ أَنْهَاكُم عَنْهَا؛ فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلٰكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»(١).

● فِيهِ مَسائِلُ:

الأولى: مَعْرِفَةُ اليَهُودِ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

الثانية: فَهْمُ الإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوىً.

قوله: «قولوا ما شاء الله وحده»: نهاهم عن الممنوع، وبَيَّن لهم الجائز.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر**: لقوله: **«إنكم لتشركون»**.

● **الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى**: أي: إذا كان له هوى فهم

---

(١) أخرجه: ابن ماجه في (الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، ١/ ٦٨٥).
وقال البوصيري: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري».
وهو عند ابن ماجه من طريق أبي عوانة اليشكري، وقد تابعه شعبة عن الدارمي، (٢/ ٢٩٥)، والخطيب في «الموضح» (١/ ٣٠٣)، وحماد بن سلمة عند أحمد (٥/ ٧٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٢١٤)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٢٦، ٦٢٧)، وزيد بن أبي أنيسة عند الطبراني في «الكبير» (٨٢١٥).
وخالف سفيان بن عيينة؛ فأخرجه: أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه (١/ ٦٨٥) من طريقه؛ عن حذيفة بن اليمان.
وكذا معمر بن راشد؛ فأخرجه الطحاوي في «المشكل» (١/ ٩٠) من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنهم.
وقد رجح الحافظ أن الحديث من رواية الطفيل.
انظر: «فتح الباري» (١١/ ٥٤٠).

الثالثة: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للَّهِ نِدًّا؟!»؛ فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ: «مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ...»، والبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

شيئًا، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه؛ فاليهود ـ مثلاً ـ أنكروا على المسلمين قولهم: «ما شاء الله وشئت»، وهم يقولون أعظم من هٰذا، يقولون: عزيز ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب.

ومن ذٰلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه؛ فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتمل، كذٰلك أيضًا بعض العصريين يحملون النصوص ما لاتحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذٰلك، كل هٰذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها؛ فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعًا لها، لا أن يُخضغ النصوص لفهمه أو لما يعتقده، ولهٰذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تُحرِّف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هٰذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى؛ فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

● **الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًّا؟!»**: هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك... والبيتين بعده...» يشير رحمه الله إلى أبيات للبوصيري في البردة ـ القصيدة المشهورة ـ، يقول فيها:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِواكَ عِندَ حُلولِ الحَادِثِ العَمِمِ

الرابعة: أَنَّ هٰذا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «**يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا**».

الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الوَحْيِ.

إنْ لَمْ تَكُنْ آخذًا يومَ المَعاد يَدِي عفوًا وإلا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
فإنَّ مِنْ جودِكَ الدُّنْيا وضَرَّتَها ومِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ

وهٰذا غاية الكفر والغلو؛ فلم يجعل لله شيئًا، والنبي ﷺ شَرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله.

● **الرابعة: أن هٰذا ليس من الشرك الأكبر**: لقوله: «**يمنعني كذا وكذا**»؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

● **الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي**: تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[1]، وهٰذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أُوحي إلى النبي ﷺ؛ لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان، وهٰذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي، كان جزءًا من ستة وأربعين جزءًا؛ لأن الوحي؛ كان ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة له.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام؛ فإنها مشوشة غير منظمة، وذٰلك مثل التي قَصَّها رجل على النبي ﷺ قال: إني رأيت رأسي قد قُطع، وإني جعلت

---

(١) أخرجه: البخاري في (التعبير، باب القيد في المنام، ٤/ ٣٠٣)، ومسلم في (الرؤيا، ٤/ ١٣٧٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السادسة: أَنَّها قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الأَحْكَامِ.

أشتد وراءه سعيًا. فقال النبي ﷺ: «**لا تُحدِّث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك**»(١)، والغالب أن المَرَائيَ المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: «**أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت. وأن يَتحوَّل إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحدًا**»(٢)، وفي رواية: «**أمره أن يتوضأ وأن يصلي**»(٣).

● **السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام**: من ذٰلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهٰذا الحديث، وكذٰلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: «**إنها رؤيا حق**»(٤)، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن

(١) أخرجه: مسلم في (الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ٤/ ١٧٧٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «... وإذا رأى غير ذٰلك مما يكره؛ فإنما هي من الشيطان، ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضره»، أخرجه: البخاري في (التعبير، باب الرؤيا من الله، ٤/ ٢٩٦).
وحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها؛ فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ من الشيطان ثلاثًا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»، أخرجه: مسلم (٤/ ١٧٧٣).

(٣) حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... فمن رأى شيئًا يكرهه؛ فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل»، أخرجه: البخاري في (التعبير، باب القيد في المنام، ٤/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣)، وأبو داود في (الصلاة، باب كيف الأذان، ١/ ٣٣٧)، والترمذي أخرج آخره دون صفة الأذان (١/ ٢٣٦) ـ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في (الأذان، باب بدء الأذان).
وقال النووي في «المجموع» (٣/ ٧٦): «رواه أبو داود بإسناد صحيح، وروى الترمذي بعضه بطريق أبي داود».

.....

شماس؛ فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت بُرْمَة، وعندها فرس يَسْتَن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس[1]، فَنَفَّذ أبو بكر وصيته؛ لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لٰكن لو دَلَّت على ما يخالف الشريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة.

* * *

(١) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢١)، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

بَابٌ
مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ؛ فَقَدْ آذَى الله

.....

السَّب: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذٰلك.

الدَّهْر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللَّوم؛ فهٰذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هٰذا اليوم أو برده، وما أشبه ذٰلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هٰذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسَبِّه الدهر أن الدهر هو الذي يُقلِّب الأمور إلى الخير والشر؛ فهٰذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقًا؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلٰهًا يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لٰكن يسبه لأنه محل لهٰذا الأمر المكروه عنده؛ فهٰذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفَه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سَبِّه تعود إلى الله ـ سبحانه ـ؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلًا، وليس هٰذا السب يُكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ . . .﴾(١) الآية.

قوله: «**فقد آذى الله**»: لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولٰكنه لا يتضرر بذٰلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذٰلك، ولهٰذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»(٢)، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»(٣). رواه مسلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. المراد بذٰلك المشركون الموافقون للدُّهرية ـ بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تُغيِّر فيه الحركة ـ، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هٰذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هٰذا يموت فيدفن وهٰذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هٰذا.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾: أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٢) سيأتي (ص٢٤٧).

(٣) أخرجه: مسلم في (البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤) من حديث أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه.

.....

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: ﴿ما﴾: نافية، و﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ خبره مقدم ﴿لهم﴾، وأكد بـ ﴿من﴾ فيكون للعموم: أي ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: ﴿إن﴾: هنا نافية لوقوع ﴿إِلَّا﴾ بعدها؛ أي: ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظنهم مبنيًا على دليل يجعل الشيء مظنونًا، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقًا، وفي هٰذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضًا يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

والرد على قولهم بما يلي:

أولاً: قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. وهٰذا يرده المنقول والمعقول:

أما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هٰذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذٰلك وتؤكده.

وأما المعقول؛ فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما في ذٰلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذٰلك ترابًا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هٰذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى فيه ويجازى فيه كل من بلغته الدعوة.

ثانياً: قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمن.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: .....

وهٰذا يرده المنقول والمحسوس:

فأما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله ـ عز وجل ـ؛ كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأما المحسوس؛ فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة؛ كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشبابًا يموتون في قوة شبابهم؛ فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب

أن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر؛ فسوف يَسُبُّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

* * *

قوله: «وفي «الصحيح» عن أبي هريرة... إلى آخره»: هٰذا الحديث يسمى الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما يرويه النبي ﷺ عن ربه ـ عز وجل ـ، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب (١/ ٨٠).

قوله: «قال الله تعالى»: تعالى مشتق من العلو، وجاءت بهٰذه الصيغة للدلالة على تَرَفُّعه ـ جل وعلا ـ عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال

يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ، .....

بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا؛ لأنها تحمل معنى التَّرفُّع والتَّنزُّه عما يقوله المعتدون علوًّا كبيرًا.

قوله: «**يؤذيني ابن آدم**»: أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولٰكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقدم النفي في هٰذه الآية على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه؛ فليس فيه احتمال للتمثيل؛ إذ لو كان احتمال التمثيل جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «**ابن آدم**»: شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعَلَّمَه الأسماء كلها.

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشؤوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هٰذا الوصف، ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهٰذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكارًا بالغًا، وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هٰذه الفكرة يقال له: بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه في الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ ....

وأجابه بعض العلماء بجواب؛ فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كَـذٰلِـكَ إقْـرارُ الـفَـتَـى لازِمٌ لَـهُ   وفـي غَيْـرِهِ لَغْـوٌ كـمـا جَـاءَ شَرْعُـنـا

ولٰكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هٰذا بين أيدي شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضًا مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامي)؛ إذ معنى هٰذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهٰذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكرًا لمخلوق.

قوله: «يسب الدهر»: الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي: بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويُقَبِّحُه ويلومه وربما يلعنه ـ والعياذ بالله ـ يؤذي الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: «وأنا الدهر»: أي: مُدبِّر الدهر ومُصَرِّفه، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولقوله في الحديث: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر. ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذٰلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقًا، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّبًا بفتح اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعًا في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟

.....

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هوالمخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله؛ فإنه قال: «إن الدهر من أسماء الله»، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله، فأما مدلول الحديث؛ فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سب الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في أسماء الله؛ فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنى؛ أي: بالغة في الحسن أكمله، فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لاتجد في أسماء الله تعالى اسمًا جامدًا أبدًا؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى؛ فيلزم من ذلك أن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا؛ فينتفي أن يكون اسمًا لله تعالى لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**».

أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[١].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»[٢].

قوله: «**أقلب الليل والنهار**»: أي: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقَلَّبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهٰذا أمر ظاهر، وهٰذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله ـ عز وجل ـ وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هٰذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

قوله: «**وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»: وفائدة هٰذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «**فإن الله هو الدهر**»: وفي نسخة: «**فإن الدهر هو الله**»، والصواب: «**فإن الله هو الدهر**».

وقوله: «**فإن الله هو الدهر**»؛ أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهٰذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المُعَلَّل حكمًا؛ فهٰذه ثلاث فوائد في قَرْن العلة بالحكم.

* * *

---

(١) أخرجه: البخاري في (التفسير، تفسير سورة الجاثية، ٣/ ٢٩١)، ومسلم في (الأدب، باب النهي عن سب الدهر، ٤/ ١٧٦٢).

(٢) أخرجها: مسلم في الموضع السابق (٤/ ١٧٦٣).

● فيهِ مَسائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثانية: تَسْمِيَتُهُ أذىً للَّهِ.

الثالثة: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ**».

الرابعة: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

فيه مسائل:

● **الأولى: النهي عن سب الدهر**: لقوله: «**لا تسبوا الدهر**».

● **الثانية: تسميته أذى لله**: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم**».

● **الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر»**: فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مُقَلِّب الدهر ومُصَرِّفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذٰلك.

● **الرابعة: أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه**: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر**»، ولم يذكر قصدًا ولو عَبَّر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذيًا لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله: «يسب الدهر»، والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ رحمه الله بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذٰلك.

* * *